

رد شبهات ودحض مفتریات حول

خلفاء العصر العباسي الأول

السماء ـ الرقيق ـ الغلمان

دكتور

محمود عبده نور الدين

قسم التاريخ والحضارة — جامعة الأزهر

لجنة التحكيم

أ.د. / محمد محمد عبد القادر الخطيب لجنة علمية دائمة

أ.د. / محمد جبر أبوسعدة لجنة علمية محكمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا
عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ (الحجرات : ٦)

المقدمة

يعد العصر العباسي الأول ، والذي استمر مائة عام تقريبا [١٣٢ - ٢٣٢هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧م] هو العصر الذهبي للخلافة العباسية ، التي تعد بدورها الحلقة المركزية الكبرى زمانا ومكانا في التاريخ الإسلامي وحضارته ، فقد امتدت زمانا أكثر من خمسة قرون [١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م] أي ٥٢٤ سنة ، كما أنها أظلت العالم الإسلامي بأقاليمه المتعددة شرقا وغربا شمالا وجنوبا ، باستثناء بعض المناطق للمد زمنية محدودة .

ومن ثم كان هذا العصر محط رحال الخاقدين ، ومرمى سهام الحاسدين ، وموطن شبّهات الجاهلين ، قدامى ومحدثين ، مسلمين ومستشرقين .

وخلفاء هذا العصر هم رموزه وروؤس إدارته وسنام سياسته ، وهم كذلك من أبرز خلفاء الإسلام ورجالاته دينيا وسياسيا وإداريا ، ومن ثم فقد نالهم النصيب الأكبر من تلك السهام والشبهات . وقد ارتدت هذه السهام وتلك الشبهات أثوابا مختلفة ، وأغلقة متباينة ، ومثلت اتجاهات عديدة على المستوي الفردي والجماعي .

وبناء على ذلك كان من ضروريات البحث التاريخي ، تناول تلك القضية التي تبلغ درجة عالية من الحساسية ، ومن الوضع الديني والخلقي ، تناولا يبين كنهها ، ويظهر خفيها ، ويثبت صحتها ويرد سقيمها ، ويوصل طيها ويبحث خبيثها .

وفي هذا الإطار جاءت هذه الدراسة في محاولة لعرض هذه القضية بأبعادها المختلفة من خلال ثلاثة محاور تمثل مجموعة من أبرز صور تلك الشبهات التي تتصل بالسلوك العام والجانب الأخلاقي والديني لدى الخلفاء ، وقد انتظمت تلك المحاور ثلاثة مباحث هي مجموع مباحث الدراسة ، والتي تلت المقدمة وختمت بنتائج البحث .

المبحث الأول : وهو الخاص بالسماع ، والمعني هنا هو سماع الأغاني والأشعار الماجنة وما شابه ذلك ، وذلك في ضوء محورين :

الأول : وقائع الروايات لهذا الأمر .

الثاني : دحض هذه الشبهة .

المبحث الثاني : وهو الخاص بالرقيق كشبهة أخرى رمى بها هؤلاء الخلفاء ؛ من ناحية الإكثار منه — ذكورا وإناثا — واستخدامه في السمر واللهو والغناء وما شاكله ، لاسيما الجواري والقيان ، بل رمى بعض الخلفاء بشبهة الغلمان ومعاملتهم معاملة الجواري ، وقد احتوي هذا المبحث على محورين :

الأول : وقائع الروايات التي تصور هذه الأمور .

الثاني : دحض هذه الشبهة في ضوء أربع نقاط .

— المدخل .

— مصدر الرقيق .

— موقف الخلفاء من الرقيق .

— أثر الرقيق في المجتمع العباسي .

المبحث الثالث : أما المبحث الثالث فهو خاص بالغلمان .

ثم تلا ذلك الخاتمة التي اشتملت النتائج ، ثم المصادر والمراجع .

محمود عبده نور الدين

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر — فرع أسوط

المبحث الأول السماع وقائع الروايات

أما الاقمام الأول في هذا الإطار فهو السماع ؛ ليس مجرد السماع ، وإنما سماع ما يحدث الحياء ويؤذي الأخلاق ، ليس هذا فحسب أيضا ، وإنما اقتران هذا السماع بشراب محرم وبجواري وقيان ماجنات في مناخ من السمر وليالي الأنس التي شبهت بليالي ألف ليلة وليلة ، مع أن أبطال هذه الليالي هم — مجموعة من صفوة خلفاء الإسلام وقادته ومن أخلص رجالاته وأشدّهم على أعدائه ، كما أنهم كانوا قائمين على الدين فكرا وتطبيقا في كل مناحي حياتهم بما يتناسب مع مكانتهم كقيادة للأمة وحماة لها ولدينها ولخلقها وخلفاء لنبينا .

المهدي^[١] : أما المهدي فإنه في إطار ما ذكر عن هوه وإغراقه في الملاذ والشهوات ، فإنه يبدو من الطبيعي ما ذكره البعض — ضمن هذا الإطار — من سماعه للغناء وشهوته له .^[٢]

الهادي^[٣] : يصور كتاب الأدب الهادي بصورة الإنسان الغارق في نزواته وملذاته فهو عند ابن المعتز " منهمك " في الشرب والقصف "مشغوف " بالسماع .^[٤] وفي روايات الأغاني شكس

^[١] هو محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، ثالث الخلفاء العباسيين تولى الخلافة من سنة [١٥٨— ١٦٩هـ / ٧٤٤— ٧٨٥م] ، خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ، دار الكتاب العلمية — بيروت — ص ٢٨٧ — ٢٩٠ ، الطبري : تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف — مصر — ١٩٧٧ — ١٩٧٩م ، ج ٨ ص ١١٠ وما بعدها .

^[٢] الشيخ محمد الحصري : الدولة العباسية ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٧٠ ، ص ٩٤ ، د . مؤيد فاضل ، عن صلاح عبد الهادي مصطفى : المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول ص ٨٣ .

^[٣] هو موسى بن المهدي ، رابع الخلفاء العباسيين ، تولى بعد أبيه المهدي من سنة [١٦٩ — ١٧٠هـ / ٧٨٥— ٧٨٦م] ، خليفة بن خياط : السابق ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ، الطبري : السابق ، ج ٨ ص ١٨٧ وما بعدها .

^[٤] ابن المعتز : طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف — مصر — ١٩٨١م ، ص ١٣٢ .

الأخلاق صعب المزاج ، لا يحبب عن ندمائه ولا عن المغنين ، وكان يكثر جوائزهم وصلاقم .^[٥]

ونراه في رواية أخرى يستمع الغناء للشاعر والمغني يوسف بن الحجاج ويعطيه ٦٠ ألف درهم على غناء غناه له ، بالرغم من أن هذا الشاعر — كما يصفه صاحب الأغاني — كان فاسقا مجاهرا باللواط وله فيه أشعار .^[٦]

هارون الرشيد^[٧] : أما الرشيد فيصوره بعض المستشرقين بأنه " ملك الليالي في ألف ليلة وليلة المتكرر في صورة أشبه ما تكون بشارلمان على الطريقة الشرقية " ^[٨] والأغاني مليء بالروايات التي تصور الرشيد بملك الليالي في ألف ليلة وليلة ، ولا يتخرج الكثير من تلك الروايات عن الاستخفاف بعقول المخاطبين أثناء عرضها لحياة الرشيد .

ومن أمثال هذه الروايات تلك التي تصور الرشيد وقد هب ليلة من نومه فركب حمرا له أسود قريب من الأرض فتوجه إلى المغني والندم إبراهيم الموصلي وبين يديه ٤٠٠ خادما أبيض سوى الفرائشين ، فزّل عليه في منزله فتلقاه متعجبا قائلا : يا أمير المؤمنين : أفي مثل هذه الساعة تظهر ! قال الرشيد : نعم ، شوق طرق لك بي ، ثم أحضر له إبراهيم طعاما فأكل منه يسيرا ثم دعا له بشراب ثم خيرد إبراهيم بين أن يغني له هو أو الجوّاري ، فأمر الرشيد أن تغني الجوّاري ، فطرب الرشيد لغناء بعضهن وشرب أرطالا ، ثم ركب حماره وانصرف وقد التفت إلى إبراهيم فقال : ما ضرك ألا تكون خليفة !^[٩]

والعجيب أن الذهبي يذكر — كما سبق — عن الرشيد أن " له أخباراً شائعة في اللّهُو

^[٥] الأصفهاني : الأغاني ، ط الدار التونسية للنشر — تونس، دار الثقافة — بيروت — ١٩٨٣ ، جـ ٣ ص ١٦٨ .

^[٦] الأغاني : جـ ٢٣ ص ٨٩ .

^[٧] تولى الخلافة بعد الهادي من سنة [١٧٠ — ١٩٣ هـ / ٧٨٦ — ٨٠٨ م] ، خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ،

ص ٢٩٥ — ٣٠٨ ، الطبري : تاريخ الطبري ، ج ٨ ص ٢٣٠ وما بعدها .

^[٨] أندريه ميكل : الإسلام وحضارته ، ت د . زينب عبد العزيز، المكتبة العصرية بيروت — ١٩٨١ م، ص ١٣١

^[٩] الأصفهاني : الأغاني ، جـ ٥ ص ١٩٨ — ٩ بإيجاز .

واللذات والغناء " ثم يعقب بقوله : " والله يسمح له " . [١٠]

المأمون [١١]: وفي إحدى الصور الكثيرة في " الأغاني " يظهر المأمون ومعه عشرون جارية عشر منهن عن يمينه وعشر عن شماله ، وجميعهن يضرب بالعيدان . [١٢]

الوائق [١٣]: أما الواثق فيروي صاحب " الأغاني " — فيما يروي — أن المغنين جميعا كانوا يحضرون مجلسه وعيدانهم معهم ، إلا إسحاق — ابن إبراهيم الموصلية — فإنه كان يحضر بلا عود للشرب والمجالسة . [١٤]

[١٠] الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق محب الدين العمري ، دار الفكر — بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
 [١١] هو عبدالله بن هارون الرشيد تولى بعد أخيه الأمين من سنة [١٩٨ — ٢١٨هـ / ٨١٣ — ٨٣٣م] ، خليفة بن خياط : تاريخ الخليفة ، ص ٣١٠ — ٣١٥ ، الطبري : تاريخ الطبري ، ج ٨ ص ٥٢٧ وما بعدها .
 [١٢] الأصفهاني : الأغاني ، ج ٥ ص ٢٥٧ .
 [١٣] آخر خلفاء العصر العباسي الأول ، تولى من سنة [٢٢٧ — ٢٣٢هـ / ٨٤١ — ٨٤٦م] ، خليفة بن خياط : السابق ، ص ٣١٧ ، ٣١٩ ، السابق ، ج ٩ ص ١٢٣ وما بعدها .
 [١٤] الأصفهاني : السابق ، ج ٥ ص ٢٥٩ .

دحض هذه الشبهات

إذا سلمنا بما جاءت به الروايات عن سماع بعض الخلفاء للشعر المصحوب بلحن من الألمان ، فيما أسموه غناءً ، فإن ثمة حقائق يجب تبيانها حتى تتضح صورة سماع هؤلاء الخلفاء على حقيقتها التي تعتمد الكثيرون من القدامى ومن سار على دريهم من المحدثين والمعاصرين استبدال صور ماجنة بها ، أو على الأقل تشويهها للنيل من هؤلاء الخلفاء .

أولاً : سماع الجيد من الشعر

وذلك أن الخلفاء لم يكونوا ليلوثوا آذانهم ويدنسوا قلوبهم بأراذل الكلام وقبيح المعاني ، بل إنهم كانوا يتأون بأنفسهم عن ذلك تماماً ، ولا يسمعون شيئاً مما يחדش الحياء أو يسيء إلى الأخلاق أو ما يشابه ذلك — على ضوء صحيح الأخبار — ولا يسمعون بقوله أو سماعه لغيرهم ، وإنما يسمعون ما يمتع سمعهم ويسد حاجة حسهم العربي الأدبي الرفيع ، وبعضهم شعراء ؛ فالمهدي كان ينهي بشار بن برد عن ذكر النساء والعشق . وذات مرة قال بشار شعراً لم يعجب المهدي وراه يحض على الفجور وإيذاء المحصنات ، فأحضره المهدي وهدده وقال له : أنتحس الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبات ، والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في نسب لآتين على روحك . وقد روى صاحب الأغاني هذا الاتجاه عند المهدي في أكثر من موضع من كتابه ^[١٥] ، أما الهادي فكان كما يقول الطبري وصاحب الأغاني — يشتهي ما توسط من الغناء وقل ترجيعه ولم يبلغ درجة الاستخفاف ^[١٦] والرشيد كان يحب الشعر من الشاعر الفصيح ^[١٧] . وهكذا سائرهم .

[١٥] الأصفهاني : الأغاني ، ج ٣ ص ١٣٥ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ .

[١٦] تاريخ الطبري : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف — مصر ١٩٧٧ — ١٩٧٩ م ، ج ١٠ ص

٢٢٦ — ٧ ، الأغاني ج ٦ ص ٢٧٠ .

[١٧] الساجي .

ثانيا : قلة السماع

من يمعن النظر ويرجع البصر في تاريخ هؤلاء الخلفاء وسيرهم وطبيعة حياتهم ، يوقن بأن مثل هذه الأمور لابد أن تقتصر على أقل الحدود الزمنية في برامجهم الحياتية ، فهم قادة لأمة بلغت من العدد والاتساع المكاني والامتداد الزماني ما يشغل قائدها وخليفته في كل وحدات زمانه ، وذلك بما تعج به هذه الأمة بمكانها وزمانها وتعدد أجناس سكانها وتباين مذاهبهم ودياناتهم وظروفهم ، فضلا عن علاقاتهم الخارجية التي كانت في جل وقتها صراعاً وحروباً على الثغور والحدود ، ثم انشغال هؤلاء — على جانب آخر — بعبادتهم وشعائر دينهم . فهم إلى جانب هذه المسئولية ، خلفاء نبي الأمة وأقرباؤه والقائمون على رسالته ، وهذا يتطلب منهم أن يكونوا على مستوى هذه المسئولية ، وعلى قدر هذه المكانة الدينية ومقدارها ، فمنهم من يصلي في اليوم مائة ركعة مثل الرشيد ، وهو الذي يغزو عاماً ويحج عاماً ، غير تنقله في الولايات وشغله بالفتن والثورات الداخلية ، فللمرء أن يتصور ما يمكن أن يتسع له وقت هذا الخليفة بالنسبة لجمال السماع أو غيره .

ومنهم من ينقطع عن هذا السماع فترات طويلة ، مثل المأمون الذي استمر عشرين شهراً — بعد قدومه إلى بغداد — لا يسمع حرفاً من الأغاني ، كما يروى الجاحظ ومن بعده أبو الفرج الأصفهاني نفسه . [١٨]

ثالثا : السماع من وراء الستارة

مع أن هذا السماع لم يكن إلا مع الخواص من الندماء والمغنين والمقربين ، إلا أن الخلفاء حافظوا على أن يكون الإطار في صورة كاملة من الخلق والوقار والهيبة ، وبتأني عن صور الابتذال الخلقي ، وأشكال النجون السمرى والחדش الذي يذهب الحياء وما شاكل ذلك وشابهه ، ومن أهم ما قاموا به من أجل ذلك ، بعد انتقاء ما يسمعون من الشعر ، هو حجب أنفسهم عن الندماء والمغنيين

[١٨] الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا — القاهرة ١٩١٤ م ، ص ٤١ ، الأغاني : ج ٥

المبحث الثاني الرقيق

وقائع الروايات

يطيب للكثيرين أن يصوروا المجتمع بطبقاته المختلفة وهو يعج بمختلف أنواع الرقيق ، يتساوى في ذلك الخلفاء والأمراء والوزراء والعامة ، بغرض الخدمة أو الغناء أو التسلية أو الإتجار إلخ . [٢٥]

فيرى البعض أن البيوت ما كانت تخلو غالباً من رقيق ، جارية أو غلام ، وأقم من أجناس مختلفة وديانات مختلفة وثقافات مختلفة فقد تكون الجارية نصرانية تلبس الصليب والزنار ، وتلبس لبسها القرومي وتكلم بلغتها ولا تحسن العربية . [٢٦]

كما كانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بالجواري حتى ليرى أنه كان لتعابة زوج يحيى ابن خالد البرمكي مائة وصيفة ، لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الأخرى وحليها ، ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهن في دور علي القوم وفي دور النخاسة والقيان ، ويصور كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء ، والجواري يستصين قلوبهم وكثيرا ما يقع حب جارية في قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلا ، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن ، ولكنه يغاديهن صباح مساء مفتونا بهن . وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال ، وهي معارض مفتوحة ليلا ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير الشعراء يتملون بالجمال ومفاته . [٢٧]

[٢٥] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م ، ج١ ص ١٠٥ .

[٢٦] السابق ، ص ١٠٧ .

[٢٧] د . شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، دار المعارف - مصر - ١٩٨٦م ، ص ٥٨ - ٥٩ .

وبذلك تحولت كثرتهن إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث ، وأخذن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء أو غير شعراء . مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر ، ولم تكن الواحدة منهن تكتفي برجل واحد ، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة ، ووصف ذلك الجاحظ فقال : " ربما اجتمع عند القينة من معشوقها ثلاثة أو أربعة ... فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالآخرى ، وتعمر هذا بذلك وتعطي واحداً سرها والآخر علات وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذي يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين وحرصها على الخلوة به دونهم . [٢٨]

ولم يكن الخلفاء بمنأى عن هذا الإطار ، فقد وجهت إليهم السهام ، ووضعوا داخل سياج من الجوّاري والقيان بغنائهن ولهن ، في صور ماجة مبتذلة شارك فيها شعراء الدعارة والنجون .

ومن ذلك ما رواه ابن المعتز — وغيره — عن مجالس المهدي مع جواريه بمصاحبة بشار ابن برد الذي كان أنيس مجلسه ، يدينه ويجزل له العطاء ، وكان معجبا به وبشعره . وبشار هذا كان كفيفا قبل موته بأربعين سنة — كما يذكر ابن المعتز — وأن حضوره مجالس الأنس هذه لأنه لا يبصر . [٢٩]

ومما ذكره ابن المعتز أيضا وأبو الفرج الأصفهاني وغيرهما [٣٠] ، أن المهدي اطلع يوما على بعض جواريه ، وهي عريانة تغتسل ، فأحست به ، فضمت فخذيها ، وستر متاعها بكفيها ، فلم يشملاها ، حتى انشت فسترته بعكن بطنها ، فخرج المهدي ضاحكا ، وبشار في الدار ، فقال : أجز هذا البيت :

أبصرت عيني لحيني

[٢٨] د . شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص ٧١ .

[٢٩] طبقات الشعراء : دار المعارف — مصر — ١٩٨١ م ، ص ٢١ — ٢٢ .

[٣٠] السابق : ص ٢٣ — ٢٤ . والأغاني : ج ٣ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

فقال بشار على البديهة :

منظراً وافق شـيـني

.....

تحت بطن السراحتين

سـترته إذ رأتـني

لم تـوار بالـدين

فـدت منه فـضول

بين طـي العـكـتين

فانـتـ حـتى تـوارت

فقال المهدي : والله ما أنت إلا ساحر ، ولولا أنك أعمى لضربت عنقك ، ولقد حكيت الأمر على وجهه حتى كأنك رأيته ، ولكني أعلم أن ذلك من فرط ذكائك ، وجودة فطنتك .

وتصور إحدى روايات الطبري الهادي وقد قدم إحدى جواريه على اهتمامه بالخلافة وأمر الأمة ، فقد ذكرت الرواية أنه كان للمهدي جارية وكانت حظية عنده ، وكانت تحبه وهو بـرجان^[٣١] — وكان — قد ذهب إليها بتوجيه المهدي ، وقد كتب إليه بآيات منها :

سـي بـرجـان نـازلا

يـا بـعـد اغـمـل أـمـ

فلما جاءت البيعة إلى الهادي ، وانصرف إلى بغداد ، لم يكن له همة غير هذه الجارية فدخل عليها وهي تغني بأبياتها ، فأقام عندها يومه وليته قبل أن يظهر لأحد من الناس .^[٣٢]

ومن ذلك : ما رواه أبو الفرج الأصفهاني ، من أن الرشيد أعطى — ذات مرة — جميع المال الذي جى من ناحية الموصل إلى امرأة واحدة من جواريه .^[٣٣]

ومن ذلك أيضا ما رواه ابن قتيبة وابن المعتز وغيرهما عن ما كان بين الرشيد وإحدى جواريه

^[٣١] مدينة عظيمة مشهورة بالقرب من طبرستان ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر — بيروت — بدون تاريخ الطبع ، ص ٣٤٨ — ٣٥٠ .

^[٣٢] تاريخ الطبري : ج ٨ — ١٨٩ — ١٩٠ .

^[٣٣] الأغاني : ج ٤ ص ٦٩ .

حيث حدث بينهما خصام وفرقة ، كاد الرشيد " يتلف " بسببها وقد جاءت الرواية على هذا النحو :

" أن الرشيد هجر جاريته ماردة وهي أم المعتصم ، وكاد يموت من عشقها ، فتكبر أن يبدأها بالصلح ، وتكبرت هي أيضا ، فصبرا على ذلك بأمر عيش وكاد الرشيد يتلف . وكان وزيره الفضل بن الربيع ، فأحضر الفضل العباس بن الأحنف ، وعرفه القصة وقال : قل في ذلك شيئا ، فقال :

العاشقان كلاهما متجنب وكلاهما معتب متغضب
صدت مهاجرة وصد مهاجراً وكلاهما مما يعالج متعب
إن التجانب إن تطاول منهما دب السلو له فعز المطلب

فبعث إليه الفضل بالأبيات ، فسر بها سروراً ، ولم يستم الرشيد قراءتها حتى قال [العباس]
أيضا بيتين في ذلك وهما :

لابد للعاشق من وقفة تكون بين الوصل والصرم
حتى إذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على الرغم

فاستحسن الرشيد إصابته حالهما ، وقال : والله لأصاخبها كما قال : وعرفت ماردة السبب في الشعر ، ولم تدر من قائله فسألت الرشيد فقال : لا أدري من صاحب الشعر ولكن الفضل بن الربيع بعث به ، فأرسلت إلى الفضل تسأله ، فأعلمها ، فأمرت له بألف دينار ، وأمر له الرشيد بألفي دينار ، وأمر له الفضل بخمسمائة دينار . [٣٤]

وتصوره رواية أخرى وقد استحوذ حب الغانيات عليه فملك قلبه ، وشغلن حياته ، وأمسك حبهن بعنانه ، بل إن سلطان الهوى لمن أعز من سلطان الخلافة !! وقد جاء هذا التعبير في الرواية على لسان الرشيد وهو يعاني من هوى ثلاث منهن إذ يقول : [٣٥]

[٣٤] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، جـ ٢ ص ٨٣١ ، وابن المعتز " طبقات الشعراء ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، والنصر لابن المعتز .

[٣٥] البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ ٤ ص ١٢ .

ملك الثلاث الغايات عناي
وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها
وأطيعهن وهن في عصيان
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
وبه قوين أعز من سلطاني

وفي صورة تتطابق تماما مع ما رواه ابن المعتز وأبو الفرج الأصفهاني ، عن المهدي وإحدى جواريه وبشار بن برد ، يروى ابن عبد ربه عن الأمين وجارية له وثلاثة من الشعراء ، تجمع الصورتين قوالب واحدة ومنهج واحد ، وقد جاءت الصورة عند ابن عبد ربه كالآتي : " بينما محمد بن زبيدة — الأمين — يطوف في قصر له ، إذ مر بجارية له سكرى ، وعليها كساء خز تسحب أذياله فراودها عن نفسها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنا على ما ترى ، ولكن إذا كان في غد إن شاء الله ! .

فلما كان من الغد مضى إليها فقال لها : الوعد ! فقالت يا أمير المؤمنين ، أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار ؟ فضحك وخرج إلى مجلسه فقال : من بالباب من شعراء الكوفة ؟ ف قيل له : مصعب ، والرقاشي ، وأبو نواس ، فأمر بهم فأدخلوا عليه فلما جلسوا بين يديه قال : ليقبل كل واحد منكم شعراً يكون آخره :

كلام الليل يمحوه النهار

فأنشأ الرقاشي يقول :

مضى تصحو وقلبك مستطار
وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهما
فتاة لا تزور ولا تزار
إذا استجزت منها الوعد قالت
كلام الليل يمحوه النهار

وقال مصعب :

أتعدلني وقلبك مستطار
كئيب لا يقر له قرار

بحب مليحة صادت فرادي
 ولما أن مددت يدي إليها
 فقلت لها عديني منك وعداً
 فلما جئت مقتضياً أجابت :
 وقال أبو نواس :

وخود أقبلت في القصر سكرى
 وهز المشي أردافاً ثقالا
 وقد سقط الردا عن منكبيها
 فقلت الوعد سيدي ، فقالت :

فقال له : أخزأك الله ! أكنت معنا ومطلعا علينا ؟ فقال يا أمير المؤمنين عرفت ما في نفسك ، فأعربت عما في ضميرك . فأمر له بأربعة آلاف درهم ، ولصاحبه بمنزلها . [٣٦]

المأمون : ولم يكن المأمون — تبعاً لهذا التصور — يبعد من أبيه في عشقه للغايات وولعه بمن ، واستحواذ هواهن وعشقهن عليه .. لقد تضاعل المأمون الخليفة بسلطانه الذي يسد الآفاق ، وملكه الذي يعم الأنحاء ، ليسقط في برائن جارية يملكها ضمن المئات أو الآلاف من جنسها ، وهي لا ترحمه ولا تكرمه ، بل ترفض السلام عليه والرجوع إليه ؛ فيستعطفها حتى لا يقتله عشقها ؛ فيبقى الناس ليس فهم إمام .

قال ابن عبد ربه في روايته : عتب المأمون على جواريه وكان كلفاً بها — فأعرض عنها وأعرضت عنه ، ثم أسلمه الهوى وأقلقه الشوق ، حتى أرسل يطلب مراجعتها ، وأبطأ عليه

[٣٦] ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق عبد الغني الترحيني — دار الكتب العلمية — بيروت ، ج ٥ ص ١١٥ — ١١٦ .

الرسول ، فلما رجع أنشأ يقول :

بعثك مرتادا ففزت بنظرة	وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا
وناجيت من أهوى و كنت مقربا	فيا ليت شعري عن دونك ما أغنى
ونزهت طرفا في محاسن وجهها	ومتعت باستظراف نغماتها أذنا
أرى أنرا منها بعينيك لم يكن	لقد سرقت عينك من وجهها حسنا!
فيا ليتني كنت الرسول وكنيتني	و كنت الذي يقصني و كنت أنا المديني

ثم إن المأمون أقبل مسترضيا لها ، فلم عليها فلم ترد عليه السلام ، وكلمها فلم تجبه فأنشأ يقول : [٣٧]

تكلم ، ليس يوجعك الكلام	ولا يؤذى محاسنك السلام
أنا المأمون والمالك الهمام	ولكنني بحبك مستهام
يحقق عليك أن لا تقتليني	فيبقى الناس ليس لهم إمام !

دحض هذه الشبهة

مدخل

جاء تصوير حياة الخلفاء العباسيين ومجتمعهم بمختلف طبقاته ، بأنها حياة يغمرها الترف ويفشاها النجون ، والرقيق ، لاسيما الجوارى والقيان ، من أهم مظاهر هذا الترف ، كما أنه مصدر لذاك النجون . والرقيق نوعان :

النوع الأول : وهو الذكور .

النوع الثاني : وهو الإناث .

وما يهمنا هنا هو النوع الثاني من الرقيق وهو الإناث ، من الجوارى والقيان ، والقيان هن اللاتي يتقن الغناء من الجوارى ، والجوارى يمثلن جانباً من جوانب الحياة الخاصة في العصر العباسي لدى كافة طبقات المجتمع بما في ذلك الخلفاء مروراً بالوزراء والأمراء والعمال والحجاب والعلماء والشعراء وفي عامة المجتمع العباسي على اختلاف أجناس هذا العصر وتباين دياناته ومذاهبه .

والرقيق عموماً — بنوعيه — إحدى طبقات المجتمع في العصر العباسي ، والمجتمع العباسي هنا ليس بدعاً من المجتمعات الأخرى ، فأمر الرقيق على هذا النحو ، بل على أكثر من هذا ، كان شائعاً لدى الأمم الأخرى السابقة والمعاصرة للعباسيين وكما يقول آدم متر : كان اتخاذ الرقيق منتشرًا عند اليهود والنصارى والمسلمين ،^[٣٨] وعلى حين أن القوانين في الدولة الرومانية — البيزنطية — كانت تحرم على غير النصارى أن يتخذ رقيقاً من النصارى ، وأن الكنيسة المسيحية كانت في بلاد الإسلام تعاقب بالحرمان من بيع الرقيق النصارى لغير النصارى ، فإن الشريعة الإسلامية لم تحرم على اليهود والنصارى اتخاذ رقيق من المسلمين .^[٣٩]

[٣٨] آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة — الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ج١ ص ٢٢٣ .

[٣٩] آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١ ص ٢٢٤ .

مصدر الرقيق

عندما جاء العباسيون كان وجود الرقيق واقعا في المجتمع الإسلامي ، وغيره من المجتمعات الأخرى ، في الأروقة السياسية ، والمؤسسات العسكرية ، والأوساط الاجتماعية ، ويرجع وجود الرقيق بهذه الكثافة إلى مصدرين أساسيين ، وهما : التجارة والحروب ، فضلا عن مصادر ثانوية أخرى مثل الهدايا .

أولا : التجارة

إذ كانت تجارة الرقيق منتشرة في أماكن كثيرة داخل ممالك الدولة العباسية وخارجها ، وكان ببغداد أسواق للرقيق ، وتجار معروفون له أيضا ، مثل أحمد بن الحارث البغدادي الذي كان نخاساً وأديباً بارعاً وظريفاً كما يصفه ابن المعتز ، وربما اجتمع عنده بمائة ألف دينار رقيق ، وكان يعامل الخلفاء والوزراء . [٤٠]

وقد سمي شارع ببغداد باسم دار الرقيق كانت توجد به ، وقد وقعت موقعة كبيرة بهذا الشارع في أثناء الصراع بين قوات الأمين وقوات المأمون ذكرها المسعودي ، وسجلها أحد الشعراء أثناء تصويره لخال ببغداد أثناء هذا الصراع إذ يقول :

بكت عيني على ببغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق

تبدلنا هموماً من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق

إلى أن بلغ قوله :

فلا ولد يقيم على أيه وقد هرب الصديق عن الصديق

[٤٠] طبقات الشعراء : ص ٤٦ .

ومهما أنس من شيء تولى فإني ذاكر دار الرقيق^[٤١]

ويذكر البعض أن سمرقند^[٤٢] كانت أكبر مصدر للرقيق الأبيض^[٤٣] ، كما كان الرقيق يجلب من أماكن أخرى مثل الهند ووسط آسيا عموماً ، وإفريقيا ، ومن الدولة البيزنطية ، وعلى ذلك كان التنوع الجنسي والتباين الديني والمذهبي ، والاختلاف الشكلي واللغوي والثقافي ، وكان يطلق على تاجر الرقيق لفظ نخاس أما تجار الرقيق في أنحاء أوروبا فكانوا من اليهود .^[٤٤]

ثانياً : الحروب

والحروب أيضاً هي أحد المصدرين الرئيسيين للرقيق ، وقد كانت هذه الحروب قائمة معظم أوقات العصر العباسي الأول بين الخلافة والدولة البيزنطية ، فيما عرف في المصادر العربية باسم الصوائف ، والشوائف أحياناً ، وحرب الثغور ، فضلاً عن حروبها مع بعض ممالك آسيا ، وأحياناً بعض دول إفريقيا ، وذلك من خلال عمال الأقاليم وقواد الجيش ، وكانت تلك الحروب تدر — فيما تدر — عدداً كبيراً من الأسرى — ذكوراً وإناثاً — سرعان ما يتحولون إلى رقيق بحكم قانون الحرب وربما يكون بعض هؤلاء الأسرى رقيقاً في أصله .

وهكذا أصبح وجود الرقيق واقعا مفروضاً في هذا العصر ، في نواحي الحياة المختلة ، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، واجتماعياً ، كما أصبح الخلفاء وسائر المجتمع أمام حقائق خاصة بالرقيق وهي :

[٤١] المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار المعرفة — بيروت ١٩٨٣م ، ج ٣ ص ٤١٣

— ٤١٤ .

[٤٢] مدينة مشهورة فيما وراء نهر جيحون ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٣٥ — ٥٣٧ .

[٤٣] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ص ١٠٣ .

[٤٤] السابق ، ص ١٠٣ .

١ — إنه واقع قبل وأثناء هذا العصر .

٢ — كثرة الرقيق وتنوعه .

٣ — الحاجة الماسة لاستخدامه .

٤ — إجازة الشريعة الإسلامية لهذا الاستخدام في صور كثيرة .

وفي هذا الإطار تعامل خلفاء هذا العصر مع الرقيق بناء على هذه الحقائق ، وكان الرقيق ينعمون بقسط كبير من الرغد والترفه ، لاسيما في دور الخلافة وغيرها من قصور الأمراء والوزراء كما كانوا يصلون إلى المراتب العليا في الدولة ، والعصر العباسي الثاني مليء بالأمثلة على ذلك ، ومن النماذج — كافور الأخشيدي الذي بيع بـ ١٨ دينار^[٤٥] ، حيث أصبح في حين من الدهر يملك مصر .

والربيع بن يونس الذي كان وزيراً للمنصور — العصر العباسي الأول — والذي يذكر الجهشيارى أنه كان ينسب إلى أبي فروة مولى عثمان بن عفان ، وقيل مولى للحارث حفار القبور بمكة ، والحارث مولى عثمان ، بل قيل إنه — الربيع — لقيط ، وصحح ابن طباطبا نسبه إلى أبي فروة^[٤٦] وكذلك الفضل بن الربيع — ابنه — الذي ولاه المنصور ، الحجابة مع ولاية أبيه الوزارة^[٤٧] كما أن أمهات معظم خلفاء هذا العصر من الجوارى اللاتي أصبحن بـسوادقن أمهات أولاد ، وهن أم المنصور وهي حبشية بربرية^[٤٨] ، وأم الهادي والرشد رومية تسمى الخيزران ، والتي كانت تمثل مركزاً من أهم مراكز القوى منذ عهد المهدي .

وأم المأمون فارسية تسمى مراجل^[٤٩] ، وأم المعتصم تسمى ماردة^[٥٠] ، وأم الواثق رومية

[٤٥] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ١ ص ١٠٣ .

[٤٦] الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٧٧ ، والحارث هو الحارث عند الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ١٢٥ .

[٤٧] الجهشيارى : السابق ، ص ١٢٥ .

[٤٨] ابن قتيبة : المعارف ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف — مصر — ١٩٨٢ ، ص ٣٧٧ .

[٤٩] المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٤ ص ٤ .

تسمى قراطيس^[٥١] ولم يبق من أمهات خلفاء العصر إلا أم السفاح والمهدي والأمين .
ومن المعروف أن بعض الخلفاء كانوا يقربون بعض الجواري منهم ويرفعوا شأنهم كثيراً من خلال هذا القرب ، فضلاً عن كون الكثيرات أصبحن أمهات لأولاد الخلفاء ، أي أفنن سيصبحن حرائر بعد موت الخليفة ، وهو في حياته لا يجوز أن يتصرف بمن مثل الجواري الأخريات بالبيع مثلاً أو الهبة أو الإهداء إلخ ، وهو التكريم الذي يحظين به في الإطار الإسلامي ، مثلاً هنا في الخلافة العباسية ، فضلاً عن منح هؤلاء الرقيق — ذكوراً وإناثاً — الحريات الكاملة في العقيدة واللغة والعادات والتقاليد .

موقف الخلفاء من الرقيق

لم يكن موقف الخلفاء العباسيين من الرقيق مثل غيرهم من أفراد المجتمع ، فالجتماع يستخدم الرقيق لأغراض تتفق في بعضها مع أغراض الخلفاء ، وتباين في بعضها الآخر ؛ فمن الأغراض المتفق عليها بين الخلفاء وغيرهم من طبقات المجتمع :

١ — الخدمة في القصور والدور المختلفة .

٢ — الحديث والسمر بالنسبة لبعض الخلفاء للمكهم هن .

٣ — الاستمتاع بمن واتخاذهن أمهات أولاد بحكم ملك اليمين .

٤ — كن يمثلن هدايا وعطاءات للآخرين .

والخلفاء أولى بخدمة هؤلاء من غيرهم ، وباقتنائهم — ذكوراً وإناثاً ، وهذا أمر مباح لهم شرعاً — كما هو مباح لغيرهم .

أما الأغراض الأخرى التي تفرد بها الخلفاء دون غيرهم

١ — الرقيق جزء أساسي من الجيش : فمن المعروف أن الموالي لاسيما من الفرس من

[٥٠] الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ص ١٢٣ .

[٥١] السابق ، ج ٩ ص ١٥٠ — ١٥١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٩ ص ٦٣ .

خراسان وغيرها كان لهم دور كبير في الجيش العباسي ، لاسيما في مرحلة قيام الدولة وإعلانها في خراسان والعراق ، ثم العنصر التركي والذي كان يشتري من مدن كثيرة مثل سمرقند وفرغانة^[٥٢] واشروسنة وغيرها ، وقد بنى لهم المعتصم مدينة سامراء لما كثروا ونال آذاهم أهل بغداد .

٢ — استخدام هؤلاء الرقيق — ذكوراً وإناثاً — من غير المسلمين ، في فداء المسلمين واستقاذهم من الروم [البيزنطيين] .

٣ — اقتناء الأدبيات الشاعرات ؛ فمن ذلك غريب جارية المأمون ، التي يقول عنها ابن المعتز أنها كانت من أحسن الناس وجهاً ، وأفصحهن لساناً وأبلغهن بياناً وأصنعهن كفاً ، وكانت شاعرة مفلقة مطبوعة ، ومما رواه لها ابن المعتز قولها :

من صاحب الدهر لم يحمد تصرفه غبا وللدهر إحلاء وإمرار
وكل شيء وإن طالَّت إقامته إذا انتهى فله لا بد إقصار^[٥٣]

ويذكر أن غريب هذه كانت عند الأمين من قبل فاشترأها المأمون ، بـ ١٠٠ ألف درهم ثم اشترأها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاة المأمون^[٥٤] إلا أن البعض يذكر أنها بيعت بـ ٥ آلاف دينار .
[٥٥]

فهؤلاء الخلفاء .. أدباء ، ومنهم الشعراء ، أصحاب ذوق رفيع ، وحس مرهف ، والأمير لا يقتصر على مجرد كونها جارية ، وقد بلغ الأمر بصاحب الأغاني بوضع باب أسمائه " أغاني الخلفاء وأولادهم^[٥٦] ، ومن هؤلاء الواثق^[٥٧] ، كما أن الصولي في كتابه الأوراق ، خص قسماً أسمائه "

[٥٢] قال عنها القزويني : ناحية مشتملة على بلاد كثيرة فيما وراء النهر ، متاخمة لبلاد الترك ، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة على مذهب أبي حنيفة ، وأحسن الناس صورة ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

[٥٣] طلقات الشعراء : ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

[٥٤] د . شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص ٦٠ ، عن الأغاني ، ج ١٨ ص ١٨٢ .

[٥٥] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ص ١٠٩ .

[٥٦] الأصفهاني : الأغاني ، ج ٩ .

أشعار أولاد الخلفاء " وذكر فيه أشعار لأولاد أبي العباس السفاح ، والنصور ، والمهدي ، والهادي والرشيدي . والأمين ، والمعتمد ، بالنسبة للعصر العباسي الأول ، فضلا عن أولاد بعض خلفاء العصر العباسي الثاني . [٢]

٤ — إظهار عظمة الإسلام : ومن ذلك ما حدث عند وصول رسولين من ملك الروم إلى الخليفة العباسي المتقدر بالله في سنة [٣٠٥هـ / ٩١٧م] بمدايا وألطف كثيرة يلتسان الهدنة فعمد القائمون على هذا الأمر إلى إظهار عظمة الإسلام وهيته لهذين الرسولين اللذان سبب ن الصورة — بدورهما — إلى ملكهما ومجتمعهما ، فترتب الأمر على أن يقابلا الوزير أولا ؛ لأنه من المتعذر مقابلة الخليفة ، وأن الوزير قد يقوم بدور الوسيط لذلك ، واصطف الجيش — وقوامه الرقيق — في الطريق من مكان نزولهما إلى دار الوزير ، وهناك عند الوزير انتظم الرقيق من الخدم والغلمان ، وبسطت الفرش والستور ، ثم فعل هذا الترتيب ، على مستوى عال ، بين دار الوزير والخليفة حيث انتقل الرسولان بعد مقابلة الوزير إلى الخليفة الذي أجابهما إلى الفداء . [٣]

٥ — دار الخلافة وما تتطلبه من خدم وحشم يليق بدار خلافة تسدير الممالك والبلدان الشاسعة وتظهر قوة الإسلام وهيبة ملكه ، وليس من المعقول ولا من المقبول أن تكون دار الخلافة أقل شأنًا من دار أحد الأمراء أو الوزراء أو غيرهم ، ومن المعروف أن الكثير من أمراء ووزراء العصر العباسي الأول كانوا يعيشون حياة مترفة تمثل القصور بما تمتلئ به من خدم وحشم وفرش إلخ قوامها ؛ ومن أبرز هؤلاء البراكمة [الفرس] ، فقد قيل إن جعفر البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم وهو — كما يبدو — لا يقل عن مليون و ٣٠٠ ألف دينار ، غير ما يحتاج إليه هذا

[١] السابق : ج ٩ ص ٢٦٧ — ٢٩١ .

[٢] الصولي : كتاب الأوراق — قسم أشعار أولاد الخلفاء — تحقيق : ج . هيورث . دن — الهيئة العامة لقصور الثقافة — مصر — أغسطس ٢٠٠٤ م .

[٣] ابن مسكويه : تجارب الأمم ، تحقيق سيد كسروى حسن ، دار الكتب العلمية — بيروت ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م ، ج ٣ ص ٣٠ — ٣١ .

البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ... إلخ. [١]

ويروي لنا ابن كثير رواية تين — بطريق غير مباشر — اتساع دار الخلافة ، وكثرة دهاليزها وحجرها [٢] بل إن ابن ابن كثير يحدثنا أنه في سنة [٦٠١هـ / ١٢٠٥م] احترق بدار الخلافة من خزائن السلاح والأمتعة والمساكن ما يقارب قيمته ٤ ملايين دينار [٣] ، وهذا وإن كان متأخراً زمنياً عن عصرنا إلا أن وجه الاستدلال قائم ، حيث وجود المضمون في وظيفة الدار ومكانتها واتساعها .

٦ — استخدامه كعطاء للشعراء : كذلك كان الخلفاء يستخدمون الرقيق كعطاء للشعراء ، ومن أمثلة ذلك ما فعله الرشيد مع الشاعر مروان بن أبي حفصة ، حيث أعطاه عشرة من رقيق الروم مع العطاء النقدي . [٤]

أما ما جاءت به الروايات من تصوير الخلفاء وهم يشركون الشعراء الماجنين أرباب الخلاعة والدعارة في شئون حريمهم من الجوارى والقيان فأمر تنفيه الحقائق والوقائع ، فضلاً عن سذاجته ؛ فبشار بن برد هذا هو الذي قتله المهدي — كما يذكر ابن المعتز — لأنه رمى بالزندقة كأصح الأخبار عند ابن المعتز [٥] ، كما أنه يقول في موضع آخر : "والصحيح عند أهل العلم أن المهدي قتله بمجوه يعقوب بن داود وزيره .. ما هذا التناقض ؟ وهو الذي استحال شعره إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية ، نداء يندى له جبين الشرف والخلق لما جعل وعاظ بلدته — البصرة — من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكف عن غيه ، وتعالى صياحهم ونظرائهم حتى وصل سمع المهدي ، فهدده وأنذره أن يتزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يرعو ، واضطر أن يتزل على مشيته . [٦]

[١] د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، دار الجليل — بيروت ، مكتبة النهضة — القاهرة ١٩٩٦م ، جـ ٢ ص ٣٤٤

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، دار الفد العربي — مصر ١٩٩٠ — ١٩٩٢م ، جـ ١١ ص ٣٢٤

[٣] د. حسن إبراهيم حسن : السابق ، جـ ٢ ص ٣٤٤

[٤] الطبري ، جـ ٨ ص ٣٤٧ — ٣٤٩

[٥] ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٤

[٦] د. شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص ٧٢

فكيف تتكشف تلك الواقعة لهذا الرجل الكفيف ، الذي لا يملك ، حسب ما وصف به وقيل فيه ، ودلت عليه أفعاله وأقواله ، من مقومات الفراسة شيئاً ، تلك الفراسة التي تكون أحياناً أداة لاستجلاء الخفي ووصفه ... وأي فراسة — إن وجدت — تصل بصاحبها إلى هذه المكافحة .

ثم هو أيضاً لا يملك من قوة الإيمان — حسبما تبينه أفعاله وأقواله — ما يدينه قد أثمته من استظهار هذا الغيب . ولا يبعد هنا — والحال هكذا — ما قيل عن رمية بالزندقة ، وهو شاعر فارسي ، يعد أحد رواد الفساد الخلقي وشيوعه في العصر العباسي الأول .

وهذا كله يعد أحد العوامل الرئيسية التي تنأى بتلك الرواية — مثل غيرها — عن الحقيقة وهذا يكاد ينسحب أيضاً على ما رواه ابن عبد ربه عن الأمين وجارته ، والشعراء الثلاثة ، أما ما روى عن الهادي والرشد والمأمون وشغفهن ببعض الجواري بالشكل الذي تضاعل أمامه أمر الخلافة وشخصية الخليفة إلى درجة يصبح معها قتلاً ، فهذا استخفاف بالعقول ومحو لدورها ، وتجاهل للحقائق والوقائع في حياة هؤلاء ، من التدين وصوره من صلاة وحج وصيام وتقوى وورع ... إلخ بشكل يناسب كونه إماماً للمسلمين — كما سبق البيان .

أثر الرقيق في المجتمع العباسي

أما ما جاءت به الروايات من أخبار حول إسهام الجواري والقيان بنصيب كبير في شيوع الجنون والليهو في المجتمع العباسي بجانب شعراء الدعارة والجنون ، أمثال أبي نواس وبشار بن برد وغيرهما ، وبسبب كثرتهم عند مختلف طبقات المجتمع وميلهم إلى اللهو والمغازلة والجنون ، فيمكن ذكر الأمور والوقائع في هذا الأمر في النقاط الآتية :

أولاً : أن المبالغة في تصوير المجتمع على هذا النحو من الجنون والخلاعة واللهو بالشكل الذي يعم أفرادهم جميعاً — تقريباً — أمر ينأى عن الواقع وتأباه الحقائق ، لأن المجتمع مجتمع إسلامي ما زال يتمسك بكل قيمة وعاداته وتقاليده التي تستمد من العقيدة وتظهرها وتبشرها الشريعة ، وهو مجتمع يحكمه خلفاء ذوو حزم وعزم يحاسبون على الصغير والكبير في مثل هذه الأمور وقد مر بنا * محاسبة هؤلاء الخلفاء لمن تذلل قدماءه في هذا المترلق الذي يدخله حدود الحرام مثل شرب الخمر .

ثانياً : أن المجتمع الإسلامي كان يمتلئ بعلماء الدين من الفقهاء والمفسرين واخذئين والوعاظ

، وكان هؤلاء أثرهم الكبير في طبقات المجتمع المختلفة ، وقد وصل الأمر إلى وجود طبقة كبرى من الزهاد والمتصوفة الذين يعزفون عن الحلال أحياناً — تقرباً إلى الله وزيادة في التقوى .

ثالثاً : أن هذا الفساد — بصورة المختلفة — كان ينحصر في بعض الفئات والأجناس غير العربية ، وبعض الأماكن المحدودة ، فالفئات مثل الشعراء الماجنين أمثال أبي نواس وبشار بن برد وغيرهما ، والأجناس غير العربية مثل الفرس ، والترك ، وغيرهم ممن كان يربطهم بتاريخهم علاقة وثيقة بهذا الجون ، كما كان الكثير منهم ما زال على دينه القديم ، وينعم بحرية تتيح له ممارسة رغباته دون تقيد ، لاسيما وأن المرء يملك الرقيق — ذكوراً أو أنثاً — ملك يمين ، فهو يملكهم ، ويملك الاستمتاع بالجواني والقيان منهم .

أما الأماكن فكانت محدودة أيضاً تكاد تنحصر في " الكرخ " من بغداد ، وبعض دور تجار القيان والجواني في بغداد والبصرة والكوفة ، ومن أشهر تلك الدور — كما ذكر البعض — دار ابن رامين المقين في الكوفة ، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز ، كان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع ابن إياس وصحبه من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم الباهلي ، وعلى شاكلتها دار إسماعيل القراطيسي المقين في بغداد ، وكانت مألفاً لأبي نواس والحسين بن الضحاك وأبي العتاهية وغيرهم من الشعراء .^[١]

[١] د . شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص ٦٨ .

بحث الثالث الغلمان

أما الطامة الكبرى والبلوى العظمى في مصاف تلك البلايا ، والتي حاول هؤلاء المغرضون وغيرهم إلحاقها بالخلفاء ، فهي التي تفوق الحد وتخرج الجد ، وتحقق الأخلاق ، وتضيق معها الآفاق ، وهي مسألة الغلمان واقتناء الخصيان ، ومحاولة إلحاقها هؤلاء الأخلاقيين من الرجال وإدعاء السوء من الأقوال والقيح من الأفعال .

تقول إحدى روايات الطبري إن الأمين لما ملك " طلب الخصيان وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بمن ، " بل كانوا جزءاً رئيسياً من الذين وزع عليهم الأمين ما في بيوت الأموال وما بحضرتهم من الجواهر ^[١] وقد أورد البعض هذه الرواية ضمن إطار عام لديه من إفراط الأمين في هوه وشرابه وغلمانه ، وأن هذه الأمور لا يسهل إنكارها عن الأمين ^[٢] كما أوردتها آخر — بطريق الرواية — دون أن تلقى هذه الشبهة عنده رمقا من الإنكار أو الشك على فداحة مضمونها وعظم جرمها ، بل إن أمة تجاربه على هذا الأمر — ظاهريا — محاولة درء هذه القالة ؛ إذ " تبعث إليه بعشرات من الجواري ، ألبستهن لبس الرجال ، حتى ينصرف عن الخصيان ، فكأن يختلفن بين يديه وأبرزهن للناس ، ولم يلبث كثيرون أن جاروه في هذا الصنيع ، وكن يسمين بالغلاليات ، وعت هذه البدعة في الساقيات بالحنانات " ^[٣] ومن مصادر هذه الأخبار الشاعر الماجن أبو نواس الذي يعد رأس الفساد الخلقي في العصر العباسي:

فهو يتغنى بهذا شعرا إذ يقول :

إحمدوا الله جميعاً — يا جميع المؤمنين

[١] تاريخ الطبري : ج ٨ ص ٥٠٨ — ٨٠٩ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠١ .

[٢] أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ص ١٣٤ .

[٣] د. شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص ٧٣ .

ثم قولوا لا تملأوا
ربنا أبسق الأملنا
صير الخيامان حتى
صير التعيين ديننا
فاقتدى الناس جميعاً
بأمير المؤمنين^[١]

وفي هذا الإطار الماجن الذي يدمر الفطرة الإنسانية ، ويأتي على الكرامة الآدمية ، وتآباه حتى المخلوقات الحيوانية ، تأتي الروايات التي سممت وأفسدت كثيرا من كتب الأدب قديمها وحديثها ، ومن هذه الروايات تلك التي أوردتها ابن عبد ربه عن المأمون وقاضيه يحيى بن أكثم بشأن أحد الغلمان من الجند ، تقول الرواية^[٢] : خرج المأمون في يوم عيد وقد ركب الجند أمامه ومعه يحيى بن أكثم يضاحكه ويحادثه ، إذ نظر إلى غلام من الجند في غاية الفراهة ، عليه ثوب حرير أخضر ، وثوب موشي مزرر بالذهب ، فالتفت إلى يحيى بن أكثم فقال له : يا يحيى ، ما تقول في هذه البضاعة ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، إن هذا لقيح من إمام مثلك مع فقيه مثلي قال : فمن الذي يقول :

قاضي يرى الحمد في الزناء ولا يرى على من يلو ط من باس

فقال : دعبل الذي يقول :

ولا أدري الجور ينقضي وعلى العامة وال آل عباس .

قال : ينفي إلى السند ، وإنما داعبتك . ثم أنشأ المأمون يقول :

أيها الراكب ثوبا
حريرا وحديدا
جئت للعبد وفي وجهه
ك للأعين عيدا
أنت جندي ولكن
فيك للحسن جنود

ومن ذلك أيضا ما جاء في إحدى روايات الأغاني عن إعجاب المأمون بغلام المعتصم سيما

^[١] الطبري : تاريخ الطبري ، ج ٨ ص ٥١٩ .

^[٢] العقد الفريد : ج ٥ ص ١٢٣ .

التركي وتغزله فيه ، حيث رآه عند المعتصم وقد انعكس على وجهه شعاع ساقط من ضوء الشمس فزاده حسناً. [١]

وهذا الأمر — كما سبقت الإشارة — أمر يناfi الطبيعة الإنسانية وتنفر منه الفطرة البشرية ؛ لأنه ضد تلك الطبيعة وعكس هذه الفطرة ، فضلا عن أنه أقبح ما يمكن أن يرمى به المرء في دينه وخلقه فكيف بنا مع خلفاء على هذا القدر وتلك المكانة التي عمت الآفاق ، وشهد بها القاصي والداني ؛ من عظم في الدين ودماثة في الخلق ، ومروءة في الطباع ، وما يمكن أن تولده تلك الخصال في شخصية صاحبها ، فضلا عن شموخ في الشخصية ، وعراقة في التاريخ ، وأصالة في النسب ، وقرب من سيد الخلق ونبي الحق ، وأقوال تثبت ذلك ، وفعال تجسده .

إن الكثير من مصادر هذه الأقوال وتلك الروايات ليسوا منها ببعيد في خلقهم ، وربما أفعالهم ، فأبو نواس مضرب المثل والنموذج الفريد في شتى ضروب الخلاعة والنجون في أعلى صورته بما في ذلك تلك الصورة السابقة ، وصاحب الأغاني ، لم يكن منها ببعيد أيضا في خلقه على الأقل ، وهكذا والمتعجب منه أن تلك الأمور صادفت هوى لدى الكثير من المحدثين والمعاصرين فلقيت عندهم آذانا صاغية ، وفي صفحات كتبهم مساحات شاسعة ، بل زكته أقوالهم وتبنتها أفكارهم ، وهم لا يبالون بجناية الأفكار ومصائب الأقوال ، فيما تحطه بالأقلام وتصدره من الأحكام .

[١] الأصفهاني : الأغاني ، جـ ٢٠ ص ٢٣٠ .

الخاتمة

وضع الكثير من القدامى والمحدثين ، من كتاب الأدب وبعض المشتغلين بعلم التاريخ ، خلفاء العصر العباسي الأول في إطار من الشهوات واللذات المأجنة ، شربا وهوا وسمرا وغناء ... إلخ ، وجعلوا من هذه الأمور وما شاكلها مظهرا عاما لهذا العصر وسمه له بكل طبقاته ، خلا فئة قليلة من العباد والزهاد ، وقد شارك في رسم هذه الصورة كتاب الأدب مثل أبي الفرج الأصفهاني في كتابه " الأغاني " ، وابن عبد ربه في " العقد الفريد " وآخرين أمثالهم ، وهؤلاء هم أصحاب النصب الأكبر في كثرة هذه الشبهات ومحاولة إغراق العصر وخلفائه فيها ، ثم تأتي بعض الروايات التي نفذت إلى كتب التاريخ ، وأصبحت مصدراً للمغرضين — قدامى ومحدثين — ثم كتابات بعض النصارى حول هؤلاء الخلفاء وحياتهم الخاصة والعامة ، وقد ثبت دحض هذه الأمور كشبهة تقلل من شأن هؤلاء العظام في تاريخ الإسلام .

أما ما يخص السماع ، فإن من كان يسمع من الخلفاء ، كان يتبع أموراً ويلتزم حدوداً في سماعه وهي :

١ — سماع الجيد من الشعر ، فهم لم يسمعوا شيئا مما يחדش الحياء ويسيء إلى الأخلاق ، وإنما يسمعون ما يتبع سمعهم ويسد حاجة حسهم العربي الأدبي الرفيع ، فهم يتذوقون الشعر ويقرضونه ، وهم ينهون الشعراء وغيرهم عن ذكر النساء والعشق والفجور وما شاكل ذلك ، مثلما فعل المهدي مع بشار بن برد وغيره وكانوا يتوعدون الشعراء إن أجروا مثل هذا على ألسنتهم .

٢ — قلة السماع ، فهم خلفاء يقع على عاتقهم حل أمة ، هي أكبر أمة آنذاك تحمل من الهموم والآلام وتنوع بأجناسها ومذاهبها ، وتوسع بمكائنها ، وتمتد بزمانها ، بما يشغل حاكمها ليلا ونهاراً .

٣ — السماع من وراء الستارة : وهو الأمر الذي حرص عليه جل هؤلاء الخلفاء — على الأقل — مراعاة لمكانتهم وحفاظا على هيبتهم واستجابة لخلقهم ، وكانت الستارة تتوسط أربعين

- ذراعاً بين الخليفة وقائل الشعر ، بل إن بعضهم كان يستخدم السواك من وراء الستارة .
- أما الرقيق ، فإن الخلفاء تعاملوا معه من خلال ثوابت ووقائع وضرورات وهي :
- أنه واقع قبل وأثناء عصرهم .
 - كثرة هذا الرقيق وتنوعه .
 - الحاجة الماسة لاستخدامه .
 - إجازة الشريعة الإسلامية لتملكه واستخدامه في صور كثيرة لم يخرج عنها الخلفاء .
- وقد تمتع هؤلاء الرقيق — ذكوراً وإناثاً — بكامل حرياتهم في عقائدهم وتقاليدهم ومظاهر حياتهم حسب أوطانهم ومجتمعاتهم ، وهو الأمر الذي افتقر إليه أمثالهم في الأمم الأخرى .
- ومن صور الاستخدام الهامة هؤلاء الرقيق :
- أنهم كانوا يمثلون جزءاً أساسياً من الجيش .
 - استخدامهم — من غير المسلمين — في فداء المسلمين واستقاذهم من الروم .
 - اقتناء الأديبات الشاعرات .
 - إظهار عظمة الإسلام من خلال التشريفات وغيرها .
- ما يخص صفات هؤلاء الخلفاء وأخلاقهم طوال حياتهم ، وتجسيد هذه الصفات وتلك الأخلاق في أفعالهم وسلوكهم ، وهي أمور أجمع عليها المؤرخون والمتبعون لحياة هؤلاء الخلفاء ، وعلى رأس تلك الصفات تدينهم ، وهو الأمر الذي مثل إطاراً كاملاً ومصدراً أساسياً لمظاهر حياتهم ومضمونها ، فجاءت باقي الصفات والأخلاق نتاجاً طبيعياً لهذا المصدر ، فبعضهم كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، ويصلي مائة ركعة في اليوم ، ويتصدق بألف درهم في اليوم أيضاً ، كما كانوا جميعاً على حرص تام بتطبيق الحدود ، واخفاضة على فرائض الدين وسنته ، وإقامة العدل بين الرعية — المحاسبة والمعاقبة على من عصى الدين أو الخلق من الرعية حتى إن كان من خاصته ، فضلاً عن صفات طبيعية في ذاتهم من الحزم ، والعزم ، والخلق الرفيع ، والسخاء ، والكرم في كثرة العطاء ، وغير ذلك مما يناقض تماماً مع تلك الشبهات التي تورث عكس هذه الصفات .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

* الأصفهاني ، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد ت [٣٥٦هـ / ٩٦٦م]

١ — الأغاني ، ط الدار التونسية للنشر — تونس ، دار الثقافة — بيروت — ١٩٨٣ .

* البغدادى ، أحمد بن علي الخطيب ت [٤٦٣هـ / ١٠٧١م]

٢ — تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية — بيروت — بدون تاريخ الطبعة .

* الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر [١٥٩ — ٢٥٥هـ / ٧٧٦ — ٨٦٨م] .

٣ — كتاب التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا — القاهرة — ١٩١٤م .

* الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ت [٧٤٨هـ / ١٣٤٧م]

٤ — سير أعلام النبلاء ، تحقيق محب الدين العمري ، دار الفكر — بيروت — ١٤١٧هـ /

١٩٩٧م .

* الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى [٢٥٥ — ٣٣٥هـ / ٨٦٩ — ٩٤٧م] .

٥ — كتاب الأوراق [قسم الراضي بالله والمتقي لله] أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢

إلى سنة ٣٣٣هـ ، تحقيق ج. ميورث . د . ن — الهيئة العامة لقصور الثقافة [الزخائر

— ١٢٣] — مصر — أغسطس ٢٠٠٤م .

* الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ، ت [٣١٠هـ / ٩٢٢م]

٦ — تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر — ١٩٧٧ ، ١٩٧٩م .

* ابن عبد ربه : أحمد بن محمد ، ت [٣٢٨هـ / ٩٣٩م]

٧ — العقد الفريد ، تحقيق د . عبد المجيد الترحيني ، دار الكتب العلمية — بيروت .

* ابن قتيبة : أبو عبد الله ابن صدر مسلم ، ت [٢٧٦هـ / ٨٨٩م] .

٨ — الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف — مصر ١٩٨٢م .

* ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، ت [٧٧٤هـ / ١٣٧٢م] .

٩ — البداية والنهاية ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، دار الغد العربي — القاهرة ١٩٩٠ — ١٩٩٢م .

* المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين ت [٣٤٥هـ / ٩٣٦م]

١٠ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة — بيروت — ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* ابن مسكوية : أحمد بن محمد بن يعقوب ، ت [٤٢١هـ / ١٠٣٠م] .

١١ — تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تحقيق سيد كسروى حسن ، دار الكتب العلمية — بيروت — ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م .

* ابن المعتز : عبد الله بن جعفر بن محمد ت [٢٤٧ — ٢٩٦هـ / ٨٦١ — ٩٠٩م] .

١٢ — طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف — مصر — ١٩٨١م .

ثانيا : المراجع

* أحمد أمين

١٣ — ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م .

* آدم ميتز

١٤ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ت . محمد عبد الهادي أبو ريده ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ م .

* أندريه ميكيل

١٥ — الإسلام وحضارته ، ت د . زينب عبد العزيز ، المكتبة العصرية — بيروت — ١٩٨١ م .

* حسن إبراهيم

١٦ — تاريخ الإسلام ، دار الجليل — بيروت — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ط ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

* د / شوقي ضيف

١٧ — تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف — مصر — ١٩٨٦ م .

* محمد الخضري

١٨ — الدولة العباسية ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٧٠ م .